٦ ـ فى البحوث الروحية

للأستاذ عبد المغنى على حسين

عن جامعة برمنجهام

ما هو النوم ؟ ثقل يداعب الرأس ، ثم تطبق الاجفان ، وينعدم الحس ، وتهدأ حركة القلب ، ويبطؤ التنفس ويكون عميقا ، وتهبط حرارة الجسم شيئا قليلا . أما المخ فيتوقف جزء منه عن العمل ، فيغيب ما يسمى بالعقل الواعى ، وينفرد بالامر العقل الباطن . والاحلام أكثرها أحاديث ، تغزو جسم النائم من خارجه ، أو تتولد فى داخله ، فتبرق بها الاعصاب الى العقل الباطن ، فيقرؤها بلغة قصصية ورمزية ، ويأخذ من سالف الذكريات ، وكامن المخاوف والرغبات ، فيكمل الاقاصيص ، ويحوك أطرافها . فى الاحلام شواذ ، ولكن أكثرها من هذا النوع

هذا هو النوم الطبيعى ، هدنة يتناولها العقل الواعى . وهناك نوم اصطناعى ، هو المعروف بالنوم المغنطيسى ، ظاهرة اكتشفها فى القرن الثامن عشر طبيب ألمانى يسمى مزمر Mesmer ، وبا كتشافها انفتحت للاحتمال سرب جديدة ، أتاها الدجاجلة يهرعون ، من كل موفور الذكاء ، منقوص الخلق ، فأساءوا إلى العلم ، وفوتوا على الانسانية النفع ، وفجع الرجل فى اكتشافه ، وساءت سمعته ، وقضى على أساليه . ولكن لما كان الشىء الحقيق لا ينعدم ، عاد العلم فى أواخر القرن التاسع عشر فتناول الظاهرة المزمرية بالدرس من جديد .

فى النوم المغنطيسى لا يغيب العقل الواعى من تلقاء نفسه ، بل بتأثير ضغط يقع عليه من عقل آخر . فاذا نظر المنوم فى عينى القابل للنوم ، أحس هذا بعد حين بثقل فى الجفون ، ثم يغمض ، ويفقد الحس ، وتسترخى عضلاته ، ويقع فى سبات يختلف عن النوم الطبيعى فيما يأتى :—

١ — لا يكون العقل الباطن مرا مستقلا كما فى النوم الطبيعى بل يكون عبدا طائعا للشخص المؤثر ، يأتمر بجميع أوامره ، ويتلقى منه كل فكرة كما با تنزيل . ويمكن تشبيه الجسم فى النوم الطبيعى بمملكة غاب مليكها باختياره ، وترك آلة الحكومة تدير نفسها ، على أن يعود اذا استدعت الحال ، أما فى النوم المزمرى فقد قهر الملك ، وكبل عنوة بالاصفاد ، فطبيعى أن تقع حكومته لعبة فى يد القاهر . هذا تشبيه فقط ، والذى يحدث على أى حال هو أن المتاثر يصبح للمؤثر أطوع من بنانه .

٢ — لا يستيقظ المتأثر من سباته إلا بأمر من المؤثر ، ولا يستيقظ من تلقاء نفسه ولو قطع اربا .

كيف يحدث هذا التأثير المزمرى ؟ لا نعرف الآن علة حدوثه على التحقيق ، وخير ما يقال فى ذلك هو أن الفكرة القوية تثير أمواجا كهرطيسية حادة تنتقل فى الأثير ، وان المؤثر عندما يحدق فى المتأثر يصليه من هذه الموجات شواظا ينصب على مراكز الوعى فى مخه فتخدر . وقد استجدت بحوث تجريبية تشهد لهذا الفرض إلى حد ما ، من ذلك ما أذاعه منذ شهور البروفسور فرديناند كازيمالى أستاذ الامراض العصبية بجامعة ميلانو ، من أن موجا كهرطيسيا يتشعع من الجسم البشرى عند اضطراب النفس ، وأنه استقبل هذا الموج بآلة سينمية ، فوجده مما يؤثر فى الاشرطة الحساسة .

مهما تكن العلة فالنوم المغنطيسى حقيقة واقعة ، وهو أداة خطرة اذا أريد منه الشر والعبث ، كما أنه نافع فى علاج العادات الذميمة ، وشفاء أمراض عصبية ليس سببها تلفا ماديا فى الاعصاب .

هذان ظرفان يغيب فيهما العقل الواعى — ظرف النوم الطبيعى ، وظرف النوم المزمرى — ونود أن نتحدث عن ظرف ثالث . من الناس من تطرأ عليه حال عصبية ، فتعتريه تشنجات ، ثم يفقد الحس ، ويبدو كأن عقليته تغيرت ، فيأتى من الاقوال والافعال ما ليس من عادته ، كان يدلى برغبات لم يكن يبوح بها ، أو يوجه عنيف الكلام الى أهله ومن هم موضع احترامه ، ويحتج على إهانات تافهة لحقته ولا يكاد يذكرها أحد ، ثم ينتفض فيعود إلى نفسه ، ويدور بعينيه فيما حوله ومن حوله ، لا يدرى ما حدث ، ولا يذكر حرفا مما قيل .

تشاهد هذه الظاهرة ، وتفسيرها سهل ، لأن كل ما يلفظ المريض من قول لا يتعدى سابق اختياراته ، والطبيعى من رغباته ، فالمسالة إذن ثورة داخلية ، يتغلب فيها العقل الباطن على العقل الواعى ، ويحكم برهة حكم طيش واضطراب ، ثم يهبط ثانية الى مستقره ، ويعود العقل الواعى من غيبته . هذه الظاهرة مرض عصبى ، يضمه الطب الى انواع الهستريا ، وسببه رعب أصاب

الشخص فى طفولته أو نحو ذلك ، فاختل التوازن بين قوى أعصابه ، وغدا عقله الواعى مزعزع السلطان .

تلك حالات ثلاث يغيب فيها العقل الواعى . ولكن الحال الثالثة (الهستريا) ليست من البساطة كما ذكرنا . فمن هذا النوع أمثلة نادرة وعجيبة . أمثلة لاتدخل فى الحقيقة فى اختصاص الطب ، لأن صاحبها لا يشكو مرضا ، تأتيه النوبات من غير ألم ، ويتحدث اليك فى ذهوله حديثا هادئا متزنا من غير انفعال ، زاعما انه شخص آخر غير نفسه ، قد يكون امرأة فتنتحل فى ذهولها شخصية رجل ، أو العكس ، وقد يكون صغيرا فيحدثك حديث الكبير أو العكس ، فاذا عاد الى نفسه لم يتذكر شيئا مما كان ، واذا عاودته النوبة برزت شخصيته الثانية بذاكرتها الخاصة ، وخبرتها الخاصة ، وحكمها الخاص على الأمور ، وأذواقها وميولها الخاصة ، وتبدأ حديثها معك من حيث انتهيتما فى المقابلة السابقة ، وبالاختصار تشعر انك تعاشر شخصين مستقلين أحدهما أساسى والآخر يأتى فى الفينة بعد الفينة .

هذه الحال يعرفها علماء النفس ، ويسمونها الشخصية المزدوجة Dual Personality . ويصح ان يتكلفها البعض لغاية فى النفس ولاسيما اذا كان من وراثها كسب ، ولكن اذا شوهدت فى أسرة لا تجربها ، كما هو حال اللادى كونان دويل ارملة سير ارثر كونان دويل المؤلف الانجليزى المعروف والباحث الروحى الكبير ، فالدجل غالبا لا محل له ، وقد خبرت هذه الحال فى فتاة كانت فى سن لا تعرف التكلف الى هذا الحد ، وما كان لها فيه مارب . أما الشخص الذى يرزق هذه الخاصة فسوء الظن به واجب ، وامتحانه يتحتم . ومن وسائل امتحانه ان تأتيه من الخلف على حين غرة وتغرز فى جسمه إبرة ، فان كان متكلفا فسيفزع من غير شك مهما كان جلدا . وقد وجد الباحثون أن من هؤلاء الناس من تضربه الابرة من الخلف مفاجأة (بمعرفة طبيب) وهو ماض كأن شيئا لم يحدث ، فهو فى ذهول حقيقى .

ولما كان جمهور الناس يعجز عن التفريق بين الحقيقة والدجل ، فالارتزاق بهذه الخاصة ومثلها يؤدى إلى فوضى ومآس خلقية ، وتحريمه واجب من غير شك .

ما تعليل هذه الظاهرة العجيبة ، ظاهرة الشخصية المزدوجة ؟ ليس لدى علماء النفس تعليل لها ، ومن يتصد لتعليلها منهم يستعر لها علة الهستريا ، ويعتبرها تبادلا للسلطة بين العقلين الواعى والباطن ، ولكن فى سلم وهدوء . أما اتزان الشخص فى ذهوله ، واكتمال شخصيته الثانية ، وما قد تتم عنه أحيانا من سمو وسعة علم وتهذيب يفوق بكثير مستوى الشخص الأصلى ، فيعزونه الى أن العقل الباطن بحر لم يعرف بعد مداه ، ولا ما قد يحوى من علم وخلق كامنين ، اتياه من طريق الوراثة ، أو تجمعاتيه بطريق التلبائى

سر اليفر لدج

ولكن عددا من الباحثين الذين انقطعوا لدراسة مثل هذه الظاهرة يذهبون إلى تفسير آخر ، وهو أن الشخصية الثانية روح مستقلة عن الشخص الأصلى ، تستطيع بكيفية تشبه التأثير المزمرى أن تنيمه ، وتتسلط على عقله الباطن ، فيكون أداة اتصال بينها وبيننا ويزعمون أنه بهذه الوسيلة يمكن وأمكن التخاطب مع أرواح الموتى . فما يسميه علماء النفس بالشخصية المزدوجة يعتبره هؤلاء الباحثون نوعا من الوساطة الروحية ، ويسمونه وساطة الذهول Trance Mediumship ,

يتضح مما سبق أن الخلاف على تعليل هذه الظاهرة العجيبة كبير ، وأن الباحثين حيالها شيع ثلاث .

فهناك المطمئنون إلى تركها شاغرة من غير تعليل ، لفرط غموضها ولكن ليست هذه بالروح العلمية ، إذ الواقع أن تعليلا خاطئا خير من لا تعليل ، فهو يفتح باب البحث على الاقل ، ويقود يوما ما الى التعليل الصحيح .

وهناك الذين يعزونها إلى العقل الباطن ، وهو رأى يستمد قوته من المحافظة على المذهب المادى ، وتلافى كل افتراض روحى وفيما عدا ذلك لا يوجد ما يؤيده .

وهناك القائلون بالفرض الروحى ، وهؤلاء يبنون أقوالهم على درس وتجريب طوال نصف قرن أو يزيد ، وفيهم رجال يزنون القول ويقدرون المسئولية ، مثل سر أليفر لدج ، ففى أقوالهم ليس باليسير ، سيما إذا كان النفى من غير اختبار ؟

عبد المغنى على حسين